

ما الذي يميز الرواية الحديثة عن آثار كتّاب كبالزاك وفلوير وديكنز؟ كان جهد الخالق قديماً أن يصف بعض الحوادث

رمادية الرواية الحديثة

يقلم محب الدين محمد

ومن خلال أعمال لا تصدق لغرابتها - كما في « الكوليرا نابولي » من كتاب (احدثو سان ميكيل) لأكسيل فوتيه نستطيع شمّ العفونة الفظيعة

الحقيقية في دروب المدينة الميتة .. بل يمكننا - بقدره ضئيلة على التصور - مراقبة الفيوان الشنيعة الدائرة تصبّ الملاك .. هنا .. وهناك ..

« ثم اندفعت تعيث في المدينة فساداً وإزعاجاً بأنبيائها السوداء الطويلة وعيونها الوحشية التي في لون الدم ، وذبولاً الحمراء الرفيعة المجردة من الشعر .. !! »

ليست الحياة دراما كلها ليظل شخوصها حزاني حتى نهاية الكتاب فأين تذهب هذه اللحظات العبقريّة التي تلهبنا السرور والانبساط ؟!

وحتى هذه الكوميديات المغرية في اصطناع الضحك (كيكويك والدون كيشوت) ... نجد مثل هؤلاء الناس الآن ؟! أنستطيع دوماً ان نعيش حياتنا في انبساطية تامة ؟! أفقد (كما ملت) أن نحي في مأساته المترددة حتى ختام أعمارنا ؟! ان حياتنا ليست كوميدياً أو مأساة .. فنحن جميعاً تتوزعنا لحظات هم وفرح ولحظات أخرى رمادية لا صبغة لها فهل فانت هذه الملاحظة أذهاناً وثابة نقادة كأذهان أولئك المردة العظام ؟!

في قصة (شتاينبيك) « فيران ورجال » نجد أن الرمادية تسود الكتاب كله كمشاهدة لتقرير الواقع الحادث .. فما هو الجديد الذي استحدثه (هوايتي) في القصة : « لقد اعتاد ان يغسل يديه .. حتى بعد الطعام .. » ولا تقرر هذه الحقيقة التي تبدها بيقينها البسيط - شيئاً ما جديداً .. وحتى عندما تُقيد ضربات قدم (سميتي) القوية ليتساوى مع ظهر (كروكس) المحطم .. فانبأ لا نخرج منها بما يساعد (ليني وجورج) على ابتعاث مزرعتها الخالية بأرانبها الملونة وخنازيرها وخضرتها الدائمة .. وهي هدف الرواية ...

بل ان غرابة حادثة يدب صاحب الارض التي يضعها في قفاز مليء بالفالزين - والتي تثير فينا استنكاراً مدهشاً - لا دخل لها في القصة كلها ... أفنعتبر هذه الحوادث حشواً أو أنها محاولة لنقل الواقع الملموس ؟! اننا لا نستطيع تصور بطل

المركبة بنزق واضح .. على أن تكون عقدة قصصية .. ينتهي عمل البطل بها عندما تحلّ هذه العقدة في نهاية الكتاب بارتجال سخيف ، بعد مرورها بمفاجآت ومغامرات وتحبيكات عدة ، لا تخرج ابداً عن المضمون الذي دفع . فان جميع أحداث الرواية القديمة كانت تقدم على واقع نمد أبداً ، ولا يعرف إلا المشكلة التي تجعل من أجلها .. اية (قصة مدينتين) لها أبطال معدودون ، فعندما يختفي حدث ما يبدأ حدث آخر لبطل ثان .. على ان جميع هذه الاحداث مرتبطة بالجواهر الاساسي الذي بنى عليه المؤلف قصته .. فلا تخرج عنه او تحيد .. ولكن هذا لا يمثل حياتنا التي تمتليء بأشياء خوارج .. ففي طريقنا لعمل شيء مثلاً نمرّ مسجلين أحداثاً ، مدهشة .. تمثل واقعاً متضخماً حقيقياً محايداً .. ترام مكتظ بالبشر .. طفل يسأل عن الوقت .. شيخ يسأل عن الطريق ..

ما من شك أن هذه الاشئآت التي نجعلها من هنا وهناك تستطيل في شعورنا ممثلةً طبيعة حياتنا بواقعها الصحيح . اما في اعمال الكلاسيكيين الخالدة ، فاننا لا نستطيع تتبع هذه الرمادية المحايدة التي تكون الـ Background للرواية المحكية . في جين آير Jane Eyre « لشارلوت برونتي » لا يمكننا تمثل هذه الوقائع المفزعة جيداً .. إلا كما تتمثل لنا من خلل الضباب أبراج كنيسة .. إننا نفتقد الصدق الذي توضحه لنا الاشياء العادية : « نعم (١) ؛ وأولئك المغاربة ذوو الوجوه الوسيمة .. كلهم مغممون كأنهم الملوكة . يسألونك أن تشرفهم بالدخول من حوائيتهم الصغيرة .. وروندا والنوافذ القديمة تطل خلصة . وأخفت خشب النافذة حتى يقبل عاشقها الاسياخ الحديدية ... هذا الصدق هو الذي يرتفع بالآثر الفني .. وليس جمالية خاصة . الصدق الذي نحسه في دقائقنا المعاشة .

في «نوتروام دو باري» « لوجو » تنهياً جميع أحداث القصة لكي تأخذ السمات الواضح الذي حدده الخالق ، وليست هناك شخصية واحدة تستطيع دفع نفسها مفلتة من عالم القاص .. ،

(١) جيمس جويس (لويس عوض)